الانتماء – وطبيعة التشكيل الرومانسي

في شعر سعاد الصباح

إعداد

الدكتورة / ليلي عبده شبيلي

أستاذ الأدب والنقد المشارك

بكلية الآداب والعلوم الإنسانية جامعة جازان

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

إن المضمون هو المحتوى للعمل سواء أكان أدبياً أم فنياً يجمع هدف ونية صاحب التكوين الفني في عناصر من المقرر أن تكون جلية صريحة لضمان وصولها إلى الناس سواء أكان العمل شعرياً أم نثرياً، وهو أساس إلهام الحامل بجهة النظر أو الرؤية ، ولكل شاعر في الشعر رؤية، ولا تنفصل الرؤية عن الفن، لأن الشعر فن ورؤية.

ولقد احتفى الشعر الحديث بأسماء لامعة لشعراء صنعوا زمانهم الشعري من رؤاهم ومواقفهم تجاه الأحياء والأشياء، ونجحوا في التعبير عن قضية الإنسان خارج نطاق الذات ، لترتبط بالحياة من هؤلاء: الشباب، صلاح عبدالصبور، أمل دنقل، نزار قباني، وكان الأخير من الشعراء الذين آمنوا بأن الشعر رسالة تعبير وتغيير وتفجير لابد أن يفصح الشعر عنها، وحمل نزار مسئولية هذه الرسالة على عاتقه قائلاً:

حملت شعري على ظهري فأتعبني
ماذا من الشعر يبقى حين يرتاح
وكيف نكتب والأقفال في فمنا
وكل ثانية يأتيك سفاح

ولما لم يكن الشعر حكراً على الزمان دون زمان أو جيل دون جيل أو جنس دون آخر فقد كان للمرأة إسهام في الشعر على مستويين: الوطن العربي والخليج العربي فكم كان حظ الشعر كبيراً حين حفظ العصر له دور الشاعرة والناقدة الراحلة نازك الملائكة التجديد والتمرد على الشعر التقليدي والمساهمة في تأسيس مدرسة جديدة للقصيدة الحرة، وليس بعيداً عن هذا الإنجاز ما أحدثته فدوى طوقان في ملئ مساحات الفراغ في شعر المرأة.

وقد جاء دور سعاد الصباح في دراسة تجلي إبداعها فكتبت في ذلك هذه الدراسة بعنوان "الانتماء وطبيعة التشكيل الرومانسي في شعر سعاد الصباح" رغبة في الإسهاب في رفع الإحجاف الذي يلاقيه شعر المرأة من حيث القبول بحقها في خوض معامرة الكتاب الذي صرحت به الشاعرة ودافعت عنه في قصائدها سيما في مجتمعنا الخليجي.

وقد جاءت هذه الدراسة من منطلق أن سنة القصيدة وقوفها ضد وحدانية التفسير، فالنص "كُل" لا يحيط الناقد إلا بأجزاء منه، وما شعريته إلا لأنه فضاء مفتوح، فما نقرأه اليوم في هذه الرسالة وبما يحمل من أدوات قلته غداً من متلق آخر.

وسنة الدراسات هي ترك بوابات الشعر مشرعة للآخرين دون أن نجزم بالنهايات، ودون أن نضر بالشكل أو بعناصر العشر الأخرى. ومن دواعي اختياري لهذه الدراسة الأسباب التالية:

الأول: أن تجربتها الشعرية ثرية وقوية وطويلة زمنياً مما يؤكد شاعريتها واستحقاق شعرها لمزيد من الدراسات العلمية.

الثاني: وجود جوانب من شعرها لم تغطها الدراسات والأبحاث التي تناولت شعرها، إذ كانت جميع هذه الدراسات تعالج جزءً أو جانباً من جوانب تجربتها

الشعرية، ومال بعضها إلى الإفراط في الإطراء والتفريط في مجانبة واضحة للموضوعية على أن بعضها الآخر كان غاية في العمق والأصالة.

الثالث: الإحساس بعد القراءة المستفيضة لدواوين الشاعرة أن فهمي أعمق من فهم غيري لبعض جوانب من شخصية الشاعرة وبعض رموز في شعرها بحكم أني خليجية من بيئة الشاعرة الطبيعية والنفسية والوجدانية وبطبيعة الحال فإن هذه البيئة هي المعمل الذي تتصهر فيه العناصر وتتحد فينتج عنها هذا الشعر.

وفي هذا الإطار وضع الهيكل العام للبحث وخطته على النحو الآتي:

١- دراسة تمهيدية بعنوان (تجربة سعاد الصباح كظاهرة شعرية معاصرة).

٢- **المبحث الأول:** ظاهرة (الانتماء في شعر سعاد الصباح) وجاء على النحو الالي:

- الانتماء للأرض والوطن.
- الانتماء للعصر.

٣- **المبحث الثاني:** "طبيعة التشكيل الرومانسي عند سعاد الصباح" وجاء على النحو التالي:

- شاعرة الحب والحرية.
- الاحساس بالفقر وحرارة الشكوى.

٤- **الخاتمة:** وفيها أبرزت أهم النتائج التي انتهت إليها الدراسة. وانتهى البحث بقائمة للمصادر والمراجع تم توظيفها من خلال هذه الدراسة.

دراسة تمهيدية:

"تجربة سعاد الصباح كظاهرة شعرية معاصرة"

تعد التجربة الشعرية للشاعرة الدكتورة سعاد الصباح من أبرز التجارب الشعرية الكويتية وأكثرها حضورا وقوة وخصوصية وهذه المختارات التي صدرت في كتاب بتقديم الناقد الدكتور محمد عناني، مختارات مقترحة.. سعاد الصباح (تمثل الرحلة الابداعية للشاعرة حتى الآن) (مختارات من عشرة دواوين مرتبة ترتيبا زمنيا وتتضمن نماذج من شعرها منظوما ومنثورا على مدى أربعين عاما تطور فيها العطاء وتنوع وازهر فيها فأثمر وأينع وذاع صيتها على امتداد الوطن العربي الكبير. وقد حاول النقد الأدبي على غزارته وعمقه واتساع نطاقه أن يواكب ركب الإبداع فكان أول اعتراف بعبقريتها يتمثل في الترجمة إلى الإنجليزية التي قامت بها دكتورة نهاد صليحة عميد المعهد العالي للنقد الأدبي عام ١٩٩٠م بمقدمة الدكتور سمير سرحان ثم توالت الدراسات عن الشاعرة منها (فاضل خلف . بيروت ١٩٩٢) وعزة ملك . باريس ١٩٩٢) سمعان بدير الصيداوي . باريس ١٩٩٢) محمد التوينجي . الكويت ١٩٩٣، (بيار ريشا . باريس ١٩٩٣) اسمعان بدير الصيداوي بالفرنسية . القاهرة ١٩٩٣)، دكتور نبيل راغب . القاهرة ١٩٩٣، سعيد فرحات بلال خير بك . بيروت ١٩٩٤، (فضل الاميل . بيروت ١٩٩٤)، محمود حيدر، بيروت ١٩٩٤، (اسماعيل اسماعيل مروة . بيروت ٢٠٠٠) عبداللطيف الأرناؤوط . بيروت ١٩٩٥)، (برهان بخاي . بيروت ١٩٩٩)، إلى جانب المقالات والدراسات المتناثرة في بطون الكتب والمجالات السيارة، وقد تنبه الكثيرون الى الظاهرة الفريدة التي تمثلها سعاد الصباح باعتبارها امرأة لا تكتب أدبا نسائيا بل أدبا إنسانياً راقيا يتخطى حدود التمييز بين الرجل والمرأة وإن كان البعض قد شغلته الثورة الفكرية للشاعرة فجنح الى تأكيد القضايا التي تصدت لها سواء أكانت قضايا المرأة العربية أم قضايا الأمة العربية ولهم في ذلك بعض العذر ولكن التركيز على القضايا مهما بلغت ثوريتها يظلم الشاعرة فكأنه هو ترجيح للفكر على الفن أو إعلاء لقضايا الحياة على قضايا الشعر وليس هذا من الانصاف.

ويؤكد الناقد الدكتور محمد عناني أن الشاعرة تمثل التلاحم بين الفكر والفن والتواصل والعمق بين الحياة والشعر وذلك هو المثل الأعلى الذي حققه الشعراء، على امتداد تاريخ الإنسانية ويضيف الدكتور محمد عناني وهو يتجلى ناصعا في دواوينها، ويعلن بكل قوة عما يسميه (ماثيو أرنولد) بالتقاء قوة اللحظة مع قوة العبقرية الفردية، أو عن التمازج الحميم بين العقل والقلب والذي امتدحه ت. س. إليوت في شعراء مطلع القرن السابع عشر في انجلترا وافتقده فيمن تلاهم من شعراء الكلاسكية، أي ان شعر سعاد الصباح تتشابك فيه خيوط الأفكار مع خيوط الاحاسيس تمازجا لا يسمح بالفصل والتميز، فترى في كل صورة هذا القلب الذي يفكر (إذا استعرنا تعبير وردزورث) وذلك الذهن الذي يشعر (بتعبير شيلي) في وحدة متجانسة تستقي من التراث انغامه ومن الحياة المعاصرة ملامح ودلالات جديدة منوعة وبالغة الثراء.

كانت أولى دواوينها تفصح عن التمازج الذي برز بجلاء في أعمالها التالية، بين صوت الفرد وصوت الأمة، فأصدرت في صدر شبابها ولما تبلغ العشرين ديوان (ومضات باكرة عام ١٩٦١) ولم تلبث أن أصدرت ديواناً آخر قبيل دراستها الجامعية إذ تبلور حسها المرهف وتوهج، فأصدرت ديوان أمينة ١٩٧١ الذي جمعت فيه قصائد تنبىء عن مولد عبقرية شعرية فريدة، وتفصح عن صوت أصيل متميز، في وقت كان فيه الشعر الجديد في الوطن العربي يمر بمرحلة حاسمة، إذ كانت حركة هذا الشعر قد اقتصرت عند البحور الصافية أي التي تعتمد على تفعيلة واحدة متكررة وشاع الرجز وهو البحر الذي يقترب كثيرا من النثر لكثرة زحافاته وعلله، وازدهر الخبب الذي يعتبر الصورة الحديثة للمتدارك.

ويضيف الدكتور عناني أنه توالت بعد ذلك دواوين الشاعرة التي أثبتت قدرتها في التعبير وفي التصوير وفي البناء المحكم فانطلقت حتى في غمرة حزنها على فقدان إبنها في ديوان (إليك يا ولدي ١٩٨٢) تتغنى البحث عن المثل الأعلى،

ناشدة الكمال والاكتمال، حتى جاءت ثورتها التي ألهبت الأكف بالتصفيق لها على امتداد الوطن العربي حين أصدرت ديوانها الثوري (فتافيت امرأة) عام ١٩٨٦م وهو يضم قصائد منثورة إلى جانب القصائد المنظومة فكأنها تعلن التمرد على قوانين النظم التي وضعها الرجل، وهو التمرد الذي بلغ أوجه في آخر دواوينها المطبوعة وهو (القصيدة أنثى والأنثى قصيدة) عام ١٩٩٩، وقد يكون من قبيل المصادفة أن يبدأ هذا التمرد العروضي مع التحول المعروف في حركة تمرد المرأة المعروفة باسم (الحركة النسائية الجديدة في العالم) وهو التحول الذي جعلها تحول العناصر السلبية (أي عناصر الاعتراض على أوضاع المرأة في المجتمع) إلى عناصر إيجابية تتجلى في الإبداع الأدبي النسوي ولكن الباحث المدقق سوف يجد أن للتمرد جذوره الفنية العميقة، فقصيدة النثر الجديدة تكسر النظم عمدا وفي مواقع محددة لتغيير نقاط التركيز الشعري.

وتجربة الشاعرة سعادة الصباح تعد واحدة من التجارب التي تخاطب القلوب العاشقة وهي امتداد للقصيدة الرومانسية في مساحات اللاشعور الهائجة في براكين اللاوعي هذه البراكين هي أمواج متيمة بالحروف والكلمات تارة هذه الأمواج تجرف القصيدة إلى مرافئ مملكة ما وراء الطبيعة وتارة تقذف هذه الأمواج القصيدة إلى مداخل شرايين الحب والعشق والغرام لقد صنعت سعاد الصباح الحب والجنون والغضب والتمرد والعشق في القصيدة فيه لغة الحوار ولغة الأمواج العاشقة تستشعر هنا في حسها المرهف الملئ برطوبة القصيدة وحرارة الحروف وبرودة الكلمة المطرزة بمتاهات الشيزوفرينيا المتمردة.

ويعقب "فضل الأمين" [١] على سعاد الصباح كشاعرة فيقول:

قبل أن ألتقيها كنت مقتنعاً بأن سعاد الصباح هي شاعرة استثنائية. فلما ألتقيتها وحادثتها أيقنت أنها امرأة استثنائية.

امرأة استثنائية في شجاعتها ، وفي تمردها، وفي رفضها واستثنائية في طموحها المشروع لأن تحيا أيامها كما يحلو لها العيش، لا وفق ما تقرره قواعد البروتوكول، وأن تتكلم على سجية اللسان لا كما يرسمه معجم الخليفة.

---

١) فضل الأمين ـ سعاد الصباح شاعرة الانتماء الحميم ـ مطابع دار صادر بيروت ـ (ط١) ١٩٩٤م.

وفي شعر سعاد الصباح يستشعر القارئ مدى شمولية تجربتها الشعرية الجوانب المرأة . الإنسان . المعذبين . البعد النفسي . الوطن . العروبة . الأرض . العائلة . القبيلة . الوفاء للشريك .. إلخ. وكأن شعر سعاد الصباح قالب حلوى تجمع حوله نفر يتذوق كل منهم طعماً ليس متاحاً لمن جاوره.

رغم اقتراب المسافة ثم يخرج كل منهم بنتيجة ظاهرها الاختلاف وباطنها الاتفاق على أن سعاد الصباح ظاهرة شعرية معاصرة ، لا يمكن تأطيرها بأنها فعالية نسائية أو كويتية أو خليجية بقدر ما يمكن القول أنها ظاهرة فكرية لمعت ككوكب في ليلة قمراء.

إن سعاد الصباح ظاهرة لا يمكن أن يتجاوزها قارئ أو باحث؛ لكونها شاعرة صرخت في وجه العصر الذي يحاول أن يسلبها الحق في حرية التعبير وحرية البوح بمشاعر إنسانية؛ لكونها حاولت أن ترد الشعر إلى رؤية وموقف ، فقد هاجمت المرتزقة والمتكسبين من الشعراء وثارت على قصائد النحو والصرف التي جعلت القصيدة العربية هي عزلة تامة عن المتلقى وعن المجتمع فأصبحت النصوص فارغة من المضمون وجوفاء.

يا زمان القبح من أي يجيء المبدعون؟
يا عراق الشعر جئنا بالجلاليب القديمات
فلا كشف
ولا رؤية جديدة
جاءت الباصات من كل الأقاليم
ولم تأتي القصيدة
أيها الشعر الذي يحرق
بالكبريت أشجار السماء
يالذي يأكل من قلبي صبحاً ومساء
كيف ترضي موقف الذل
أليس الشعر أين الكبرياء؟

وعلى هذه الرؤية فإن شعر سعاد يتعدى الوظيفة الجمالية ليصيح سلاحاً في معركة التعبير.

إن هذا الصوت الشعري الناضج هو سطر انجازات على مستوى الفكرة ليكون في الصف الأول من شواعر العصر الحديث ، قالت عنها ليلى محمد الصالح (تمتاز بشفافية المرأة الشرقية من خلال شخصيتها وأسلوبها الشعري الذي يحمل الوضوح والكبرياء والوداعة والحياء) لقد أعطت الشاعرة لدخول المرأة في ميدان الأدب عامة والشعر حاوته مضموناً ومعنى جديدين.

وأخيراً:

فإن تجربة سعاد الصباح تشكل ظاهرة لها خصوصيتها وتميزها ، ليس في شعر المرأة العربية المعاصرة أو الشعر في منطقة الجزيرة العربية بل في التجربة الشعرية العربية المعاصرة.

السيرة الذاتية للشاعرة:

ولدت الدكتورة سعاد محمد الصباح في الكويت عام ١٩٤٢ في بيئة كويتية تقليدية. كان لوالدها تأثير عميق عليها، حيث ورثت عنه جزءاً كبيراً من اهتماماتها الخاصة، أبرزها حبها للقراءة والكتابة والشعر.

تلقت الدكتورة سعاد الصباح تعليمها الثانوي في دولة الكويت ، ثم التحقت بـ "كلية الاقتصاد والعلوم السياسية" في جامعة القاهرة، وحصلت على درجة البكالوريوس مع مرتبة الشرف في الاقتصاد، وسجلت للدراسات العليا لدى "كلية الدراسات الشرقية والأفريقية" بجامعة لندن، لكنها تحولت بعد ذلك إلى جامعة "ساري"، المملكة المتحدة. بعد الحصول على درجة الدكتوراه في الاقتصاد من جامعة ساري عام ١٩٨٢، بدأت نشاطها في الأبحاث والكتابة في مجال تخصصها والمواضيع ذات الصلة.

أضافت الدكتورة سعاد الصباح إلى المكتبة العربية مؤلفات عدة تتعلق باقتصاديات الدول المنتجة للنفط. ويتضمن ذلك أربعة عشر كتاباً وأكثر من ١٥٠ مقالاً.

ويعتبر كتابها" التخطيط والتنمية في الاقتصاد الكويتي ودور المرأة" مرجعاً للمهتمين بالأبحاث الخاصة بالكويت بشكل خاص ومنطقة الخليج بشكل عام.

وينظر بتقدير إلى أعمالها المشورة في مجاليّ اقتصاديات وصناعة النفط. ثم إن أعمالها العلمية لا تنحصر في الاقتصاد ولكنها متنوعة بالتأكيد. فهي كاتبة مساهمة منتظمة في العديد من الصحف.

ولا تقتصر كتاباتها على القضايا الاجتماعية والاقتصادية فحسب، إذ تعتبر إحدى أشهر الشاعرات على مستوى العالم العربي. وقد نشرت أشعارها في عدة مطبوعات يومية وأسبوعية وشهرية وتم توثيقها في خمسة عشر كتاباً. ورغم أن إنتاجها الشعري يغطي سلسلة كبيرة من المواضيع تتراوح بين الرومانسية والوطنية، إلا أنها تدور حول محور مشترك: (فالحرية) تسيطر على كتاباتها، سواء كانت حرية الرجل أو المرأة، حرية الإنسان دون التمييز بينهم، وتجتذب أمسياتها الشعرية جمهوراً عريضاً وتحظي دائماً بتغطية صحافية مسهبة.

المطبوعات المنشورة:

١- "التخطيط والتنمية في الاقتصاد الكويتي ودور المرأة"، دار إيستلوردز/ لندن، ١٩٨٣م.
٢- "أضواء على الاقتصاد الكويتي"، دار ايستلوردز/ لندن، ١٩٨٣م.
٣- "المرأة الخليجية ودورها في القوة العاملة" دار ايستلوردز/لندن، ١٩٨٦م.
٤- "الأوبك: التجربة السابقة والتوقعات المستقبلية"، دار ايستلوردز/لندن، ١٩٨٦.
٥- "سوق النفط الجديد: المملكة العربية السعودية تستعيد مبادرتها" دار ايستلوردز لندن، ١٩٦٨م.
٦- "زمة الموارد في العالم العربي" دار ايستلوردز/ لندن، ١٩٨٦م.
٧- "هل تسمحون لي أن أحب وطني؟" الهيئة العامة للكتاب/ القاهرة، ١٩٩٠م.
٨- "صقر الخليج: عبدالله مبارك الصباح" ، دار سعاد الصباح/ الكويت، ١٩٩٥.
٩- "حقوق الإنسان في العالم المعاصر"، دار سعاد الصباح/ الكويت، ١٩٩٥.
١٠- "حقوق الإنسان: النظرية والتطبيق"، دار سعاد الصباح/ الكويت،١٩٩٧.
١١- "ماذا تعرف عن حقوق الإنسان؟" دار سعاد الصباح/ الكويت،١٩٩٧.
١٢- "أوراق في قضايا الكويت (١)" ، دار سعاد الصباح/ الكويت،٢٠٠٦.
١٣- "أوراق في قضايا الكويت (٢)" ، دار سعاد الصباح/ الكويت،٢٠٠٦.

١٤- "أوراق في الاقتصاد الخليجي"، دار سعاد الصباح/ الكويت٢٠٠٦.
١٥- "أوراق في السياسة الدولية"، دار سعاد الصباح/ الكويت٢٠٠٦.
١٦- "أوراق في الاقتصاد السياسي الدولي (١)"، دار سعاد الصباح/ الكويت٢٠٠٦.
١٧- "أوراق في الاقتصاد السياسي الدولي (٢)"، دار سعاد الصباح/ الكويت٢٠٠٦.
١٨- أوراق في السياسة النفطية (١)"، دار سعاد الصباح/ الكويت ٢٠٠٦.
١٩- "أوراق في السياسة النفطية (٢)"، دار سعاد الصباح/ الكويت٢٠٠٦.
٢٠- " رسائل من الزمن الجميل"، دار سعاد الصباح/ الكويت ٢٠٠٦.
٢١- "رسائل من الزمن الجميل"، دار سعاد الصباح/ الكويت ٢٠٠٦.

المقالات والأبحاث:

١- " النساء العاملات في الخليج" مجلة الخليج العربي، مجلد٥، رقم ١، ابريل ١٩٨٥.
٢- "التنمية الاقتصادية في الدول المنتجة للنفط والتغيير الاقتصادي الحديث"، ورقة مقدمة إلى مؤتمر القاهرة، فبراير ١٩٨٥.

ما المقصود بالانتماء؟

١) إنَّ الانتماء يعني أن ينتمي الإنسان وينتسب ويرتبط ويرجع إلي مَن يُذكرّه بكل خيرٍ ويعينه عليه وينهاه عن أيّ شرّ ويمنعه منه، فينطلق في الحياة بهذه التذكرة وبهذا الانتساب وبهذا الارتباط وبهذه المرجعية، أي بهذا الانتماء، بأقوي وأفضل وأكمل صورةٍ للانطلاق، وبازديادٍ ونمُوٍّ مستمرّ ودائم ، فيسعد فيها أتمّ سعادة ، عقليا وفكريا ومشاعريا وجسديا، ثمّ أعظم وأخلد وأدْوَمَ في آخرته ... وهذا هو ما يتفق مع أصل الانتماء لغويا حيث هو من مادة نما نُمُوًّا .. وهو يُقارب أو يُساوي معني الهُويَّة، أي بطاقة التعريف الشخصية ، أي مَن هو؟ سواء أنا أم مَن حولي ، مَن يكون وما أصله وما مرجعياته؟

٢) إنَّ صفة الانتماء فطرية، وضعها خالق الإنسان سبحانه فيه ضمن صفاته الحسنة ، لمصلحته ولسعادته، ليظل متواصلا معه، كالحبل السّرّي بين الجنين وأمه – ولله المثل الأعلي وليس كمثله شيء– يُغذيه ويُنمّيه ويُسعده ! وبدونه يشقيَ و يَنهار ويَهلك.. يقول الإمام حقي في تفسيره لقوله تعالي : " ونحن أقرب إليه من حبل الوريد " (ق : ٥٠) : " .. يُشير به إلي أنه تعالي أقرب إلي العبد من نفس العبد إلي العبد ، فكما أنه في كل وقت يطلب نفسه يجدها لأنها قريبة منه فكذلك كل وقت يطلب ربه يجده لأنه قريب منه.." ، ويقول الإمام القشيري في تفسيرها : "...روْح وسكون وأُنْس قلب.." .. فليعتبر بذلك، وليُحسن استخدام هذه الصفة حتي يُنَمِّيها ويُرَبِّيها ، ليستمرّ هكذا مرتبطاً بربه وبمَن حوله وليس انفراديا، وإلا ضعفَ وضمرَ وهلكَ وتعس .. في دنياه وأخراه

٣) فالإنسان ينتمي أولا إلي الله، خالقه ومُرَبِّيه ورازقه ومُعينه وُمَوّفقه، وهو أشرف وأقوي وأضمن وأسعد انتماء وانتسابٍ وإضافة وارتباط ومَرْجع، وهو بهذه المرجعية، ولو استمرَّ مُحافِظاً عليها، هو دائم الأمان والاطمئنان والشرف والجلال والعظمة والعُلوّ والتكريم والهناء والاستقرار والسعادة، كما يُفهَم من قوله تعالي : " ونفخت فيه من روحي " (ص : ٧٢) والذي قال في تفسيره الإمام ابن عطية في " المحرر الوجيز " : " هي إضافة ملك إلي مالك ، لأنّ الأرواح كلها هي ملك لله تعالي ، وأضافه إلي نفسه تشريفا .. " ، وجاء في " تيسير التفسير " للقطان (الحجر : ٢٩) : " .. هذه النفخة

العلوية ... تَصِلُه بالملأ الأعلي وتجعله أهلا للاتصال بالله .. " ، وقال الإمام ابن عجيبة في " البحر المديد " عند تفسيره لقوله تعالي : " .. خلقت بيديّ " (ص : ٧٥) : " .. لإبراز كمال الاعتناء بخلقه عليه السلام المُسْتدعِي لإجلاله وإعظامه .. "

٤) ثمّ يبدأ بعد ذلك ، بعد هذا الانتماء العام، لله وللأرض وللإنسانية وللدين، يبدأ بعض التخصيص تدريجيا، فتبدأ درجات من الانتماء الخاص، لمزيدٍ من القرُبْ والتواصُل والتجانس والتلاحُم، فتزداد وتنصهر وتكتمل العلاقات بين الإنسان وأخيه الإنسان، بل بينه وبين غيره من جميع المخلوقات، فتزداد المشاعر الجميلة والتي ينبني عليها المنافع الكثيرة، وتعُمّ بالتالي السعادات.

٥) فينتمي الإنسان بعدها لدولته ووطنه، لمساحته الجغرافية التي يحيا بها واتفق مجموعة من البشر علي تسميتها باسمٍ ما وجَعْل نظامٍ لها لا يتعارض مع الأسُس والنظم والأخلاقيات العامَّة لعموم الإنسانية والتي علمّها خالقها لخلقه منذ خلق أبيهم الأول آدم كما يُفهَم من قوله تعالي : " وعلمَّ آدم الأسماء كلها " (البقرة : ٣١) .. فهذا الانتماء لها ولِمَن يعيشون عليها والذين لهم ذات الأهداف والأعمال والأرباح المُتقاربَة ويتعاونون فيها ، يزيده ويزيدهم حبًّا لها وانتفاعاً بها فيما بينهم وسعادة فيها ، فيزدادون فكرا وعملا وكسبا وربحا ، ويزدادون حبًّا والتحاما ، ويزدادون بالتالي هناء ..

٦) ثمّ يكون بعد الانتماء للوطن وللدولة ومُدُنِها، الانتماء للعائلة، ذات الصلات والدماء المُتقاربَة من أرحامٍ وأنسابٍ وأصهار، حيث التحام أفرادها له مذاقه السعيد، لأنهم سيُشكلّون كتلةً بشريةً مُتقاربَة، بينها التراحُم والحب والتعاون والتكاتُف، في الحوار والعلم والعمل والإنتاج والأفراح والأحزان ونحوها.. فيَنمون أكثر، ويُنتجون أكثر، ويَربحون أكثر، ويتلاحمون أكثر.. فيَسعدون أكثر... في الداريْن.. وهذا هو ما يُفهَم من قوله (ص) المعروف: "مَن أحبَّ أن يُبسَط له في رزقه وأن يُنسَأ له في أثره فليصل رحمه"

٧) ثمّ تضيق دائرة الانتماء أكثر، لمزيدٍ من الانصهار، فيكون الانتماء للأسرة، حيث الودّ والرحمة والسكينة والتكامُل والتعاون والتسامح والتصافِي

والانطلاق والإنتاج والربح، بين الآباء والأمهات والأبناء، كما يُفهَم من قوله تعالي : " وجعل بينكم مودة ورحمة " (الروم : ٣٠)[١]

المبحث الأول: الانتماء عند سعاد الصباح

أولاً: الانتماء للأرض للوطن:

منذ عقدين من الزمن، بدأت موضوعة المكان في الأدب تشغل اهتمام النقاد والباحثين في الرواية والمسرح كثيراً، وفي الشعر قليلاً.

وفي المكتبة العربية دراسات محدودة حول هذه المسألة لعل أكثرها شمولاً كتاب الموسوعة الصغير لياسين نصير حول المكان في الرواية، ثم دراسة لغالب هلسا قدمها كورقة عمل إلى "ملتقى الرواية العربية الجديدة" الذي انعقد في فاس بالمغرب عام ١٩٧٩، معتمداً على نظرية الفيلسوف الفرنسي غاستون باشلار الذي عنى بالكشف عن شاعرية المكان. وظهرت كذلك بعض الدراسات عن خصائص المكان في أعمال نجيب محفوظ. وأخيراً ظهر كتاب جديد لشاكر النابلسي تحت عنوان "المكان في الرواية العربية"، اقتصر على جماليات المكان في أعمال غالب هلسا نفسه.

وإذا كان النقد العربي لم يول المكان حقه في هذا العصر، فإن الدراسات الاستشراقية والمناهج الأكاديمية في الجامعات العربية أجمعت على أن للمكان تأثيراً عميقاً في الشعر العربي القديم، وفي مختلف عصوره، فكانت تسميته شعراء الحضر وشعراء البوادي.

وفي التجربة النقدية المعاصرة ظهرت تسمية " شعراء الجنوب" وهي الاسم التي أطلق على جماعة من الشعراء اللبنانيين في السعبينات.

وسواء لحظ النقاد موضوعة المكان في الشعر الحديث المعاصر أو أهملوها، فإن الثابت أن العديد من شعراء الحداثة أبدوا اهتماماً بالمكان. وأخص بالذكر منهم بدر شاكر السياب الذي أكثر من ذكر قريته "جيكور" ، ومن ذكر كلمات: الخليج، المحار، النخيل، وهي رموز للمكان (البصرة وجنوب العراق).. ومثله أحمد عبدالمعطي حجازي.

---

١) الدكتور- محمود محمد منصور - ما الإسلام والدعوة بالحسنى - ٢٠١٣م.

ونكهة المكان في الشعر العربي المعاصر طبعت العديد من نصوص السوريين اللبنانيين والمصريين والفلسطينيين والعراقيين في حين أنها غابت عن شعر الخليجيين عموماً والكويتين خصوصاً، باستثناء ما يرد من خصوصيات المكان في الشعر النبطي والشعبي الخليجي. وظل المكان غائباً عن الشعر الخليجي المعاصر إلى أن جاءت سعاد الصباح فاستحضرته بامتياز. [١]

قبل "أمنية" و"اليك يا ولدي" و"فتافيت امرأة" و"البدء كانت الأنثى" و"برقيات عاجلة إلى وطني" و"آخر السيوف التي رحلت" "قصائد حب" لم نقرأ لخليجي من المعاصرين أو الغابرين كلاماً فيه مثل ما في شعر سعاد الصباح من وله بالأرض ووجد بالصحراء، وعشق للرمال ولرياح الطوز السموم، ولا مثل هذا الاعتزاز بتاريخ أبعد ما يقال فيه إنه لم يكتب بعد، ولا مثل هذا الانتماء لشعب ما زال في طور التكون والبحث عن الذات والهوية، باعتراف كل الوقائع.

الانتماء للأرض يغطي مساحة شعرها، ويتركز على أرض الكويت ولا يتجاوزها. أما الانتماء للعرض فيغطي مساحة الشعر ومساحة القلب والأعصاب، ويتجاوز شعب الكويت إلى الإنسان العربي أينما وجد.

تقرأ شعر العشق هذا وتطالعك بواكيره في مستهل باكورة المجموعات السبع "أمنية" حيث يطل عنوان زمان اللؤلؤ، وحيث:

في بلادي... في مغاني أرض أجدادي الجميلة
لي حكاياتٌ، وآياتٌ، وأبياتٌ طويلة
سوف يروي سرها الأطفال للأجيال عني
وعن اللؤلؤ والمرجان في العهد الأغن
وعن الغواص لا يعرف ما لون الهموم
وهو يهوي في دجى البحر، ويصطاد النجوم
ليسويها عقوداً في صدور الغانيات
تملأ الأيام نوراً وتضيء الذكريات
هكذا ينتحر الخير وتبقى الذكريات
يا زمان اللؤلؤ الحر... زمان الحرفات

١) فضل الأمين ـ سعاد الصباح شاعرة الانتماء الحميم ـ شركة النور للصحافة والنشر ـ بيروت ط(١) ١٩٩٤م.

ومن مرحلة الإبداع في "أمينة" إلى مرحلة الوجد الصوفي في "اليك يا ولدي" فالى مرحلة التجديد وتفجير الشاعرية في "فتافيت امرأة" تظل الأرض بما هي بيئة طبيعية واجتماعية وتراث، الهاجس الأعظم في شعر الدكتورة سعاد الصباح.

هذه المجموعة الشعرية "فتافيت امرأة" تستفزك بعمق العشق الذي فيها، وباتساعه، وبعفويته. ثم إنه عشق عميم، حيث نقرأ أربعة نصوص كاملة خصصت له، ونقرأ لمحات شاردة في ثنايا النصوص الأخرى المحجوزة لعشق الحبيب، وفيها يختلط الحبيب الرجل بالحبيب الوطن.

النصوص الأربعة الموقوفة على الوطن حملت العناوين التالية:

كويتية، أوراق من مفكرة امرأة خليجية، إن جسمي نخلة تشرب من شط العرب، وردة البحر.. والوطن فيها يتأرجح بين أن يكون الكويت حصراً، أو منطقة الخليج، أو الأرض العربية الشاسعة.

الانتماء إلى هذا الوطن هو سمة النصوص الأربعة مثلما هو سمة الخطاب الشعري في الدواوين السبعة حيث تتوحد العواطف والمشاعر بالأرض توحد العاشق بالمعشوق:

يا صديقي
في الكويتيات شيء من طباع البحر
فادرس،
قبل أن تدخل في البحر ، طباعي

لا تنسى انتماءها حتى في خطابها الأنثوي. لا بل إنا تبدو أكثر انتماء للكويت وألصق بأرضها حين تتلمس الأنثى في ذاتها وحين تخاطب الرجل.

وإذا كان هاجس الخوف من التلوث النفطي قد عمر البواكير ، فإن هذا الهاجس يكبر وينمو ويتفاعل ويتطور مع قصائد الثمانينات:

يا صديقي..
إن عصر النفط ما لوثني
لا ولا زعزع بالله اقتناعي
أنت لو فتشت في أعماق روحي
لوجدت اللؤلؤ الأسود مزروعاً بقاعي.

إذن، فاللؤلؤ ليس جزءاً من الذاكرة فحسب، بل هو جزء من الجسد، إنه مزروع فيه.

وتتوالى إقاعات نبش ذاكرة الانتماء للبشر والحجر على السواء:

والكويتية ملت من غبار الطوز
واشتاقت إلى ظل البساتين
وإيقاع النوافير
وأصوات الطيور

والكويتية في معركة كبرى مع التاريخ لم تحسم وفي هذا النص تعلن مرة أنها نخلة. ومرة أنها إعصار، ومرة أنها نهر، وهي تبقى، رغم هذه الأسماء الحسنى ، "فاطمة" المرأة النفطية التي تتحدى كتب التنجيم كما تقول في نص يحمل عنوان المجموعة: "فتافيت امرأة": حيث يراودها اللؤلؤ فلا تستطيع منه انفلاتا:

أيها السيد:
أني كنت في بحر بلادي لؤلؤة
ثم ألقاني الهوى بين يديك

اللؤلؤ الكويتي يحاصر هذه الشاعرة أينما كانت وتحاصرها هويتها الخليجية، وسحنتها الخليجية؛ لنقرأ من نص آخر هذه الكلمات:

أنا الخليجية
التي يمر من بين شفتيها خط الاستواء
أنا الخليجيةُ
التي يمرُّ من بين شفتيها خطُّ الإستواءْ
وعلى خيطان دشداشتها
تتجمعُ مراكبُ النواخذهْ
ولقالقُ البحرْ
ونجومُ الصيفِ المتساقطهْ
من حدائقِ اللهْ...
أنا شجرةُ السدرِ الدائمةُ الاخضرارْ
وفاكهةُ النارِ والنحاسْ
وزهرةُ الحلمِ والنعاسْ
أنا البدويةُ...

وفي هذا النص: "أوراق من مفكرة امرأة خليجية" تحاصرنا الشاعرة بالألوان والأشياء الخليجية والرموز الخليجية:

أنا النخلة العربية الأصول
أنا الخليجية التي نصفها سمكة
ونصفها امرأة
أنا الناي والربابة والقهوة المرة

ومن هذا الانتماء الخليجي الأرحب تعود الشاعرة فتضيق الدائرة مثلما تفعل في كل مرة. فإذا بالإنتماء يغدو كويتياً بالمكان وبالرمز:

أنا السالمية.. أنا الشويخ

ومن مرحلة الابداع في "أمينة" إلى مرحلة الوجد الصوفي في "إليك يا ولدي" فإلى مرحلة التجديد وتفجير الشاعرية في "فتافيت امرأة" تظل الأرض بما هي بيئة طبيعية واجتماعية وتراث، الهاجس الأعظم في شعر سعاد الصباح. يبقى الوطن هو النبض، وأرضه الرئه، وإنسانه الشريان الذي يحمل الدم والحياة:

كويتُ، كويتْ [1]
موانئ أبحر منها الزمان
وواحة حبّ وبرُّ أمان
وشعب عظيم
وربّ كريم
وأرض يسيّجها العنفوان
كويتُ، كويتْ
شواطئ مصقولة كالمرايا
وبحرٌ يُوزّع كلَّ صباحٍ علينا
ألوف الهدايا

إنه العشق العميم باتساعه وبعفويته وتوحد العواطف فيه والمشاعر بالأرض توحد العاشق بالمعشوق:

في الكويتيات شيءٌ من طباع البحر.. فادرس
قبل أن تدخل في البحر.. طباعي

١) ديوان فتافيت امرأة ـ دار سعاد الصباح للنشر ـ (ط٩) ـ الكويت ١٩٩٧م ص ١٤٣.

والكويتية حلت من غبار الطوز [١]
واشتاقت إلى ظل البساتين
وإيقاع النوافير
وأصوات الطيور
والكويتية في معركة كبر لم تحسم

وفي هذا النص تعلن مرة أنها نخلة، ومرة أنها إعصار، ومرة أنها نهر وهي تبقى، رغم هذه الأسماء الحسنى "فاطمة" المرأة النفطية التي تتحدى كتب التنجيم كما تقول حيث يراودها اللؤلؤ فلا تستطيع منه انفلاتاً:

أيها السيد[٢]... أني كنت في بحر الهوى لؤلؤة
ثم ألقاني الهوى بين يديك

هكذا يحاصر اللؤلؤ الكويتي هذه الشاعرة أينما كانت وتحاصرها هويتها الخليجية، وسحنتها الخليجية، لنقرأ من نص آخر هذه الكلمات.

أنا الخليجية[٣]
التي يمر من بين سعسها خط الاستواء
وعلى خيطان دشداشتها
تتجمع مراكب النوافذة
ولقالق البحر
ونجوم الصيف المتساقطة
من حدائق الله

وفي أوراق من مفكرة "امرأة خليجية" تحاصرنا الشاعرة بالألوان والأشياء الخليجية والرموز الخليجية:

أنا النحلة العربية [٤]
أنا الخليجية التي نصفها سمكة
ونصفها امرأة

---

١) ديوان فتافيت امرأة ص ٢٥.
٢) السابق ص ٤٦.
٣) السابق ص ٤٧
٤) ديوان برقيات عاجلة إلى وطني ـ دار سعاد الصباح (ط٦)٢٠٠٥م ـ الكويت ـ ص١٧.

أنا الناي والربابة والقهوة المرة

ومن هذا الانتماء الخليجي الأرحب تعود الشاعرة فتضيق الدائرة فإذا بالإنتماء يغدو كويتياً بالمكان والرمز.

أنا الساعية.. أنا الشيوخ

ويتحول الانتماء إلى قضية تماماً كما تحولت الأرض الصحراء إلى وتتحول أصابع الشاعرة التي ترتعش إلى ريشة لا تخط شيئاً غير قلائد الحب والانتماء لهذا الوطن الذي غطى مساحات جسدها وصبغها ووسمها بالحب ، والخوف، والقلق، واليأس، والأمل النحيل، وهي تنتظر كل صباح الفارس والمنقذ الذي تشرق فوق كفيه شمس الولادة والخلاص والانعتاق:

كلما مر ببالي عرف اليوم بكيت[١]
كلما أبصرت هذا الوطن الممتد
بين القهر والقهر... بكيت
كلما حدقت في خارطة الأمس
وفي خارطة اليوم.. بكيت!!

ثم تأتي بعد ذلك كويت – القضية، التي تحبها الشاعرة

كالشمس تعطين ضوءك للعالمين [٢]
وكالأرض تعطين قمحك للجائعين
وتقتسمين الهموم مع الخائفين
وتقسمين الجراح مع الثائرين
وكويت القضية "لحرية الرأي فيها تراث طويل"
وزرع العروبة فيها "قديم قديم كهذا النخيل"

ويتجلى الوله والعشق للكويت أرضاً وبشراً وتاريخاً وقضية في هذه الصلاة:

كويت، كويت
أحب ابتسامتك الطيبة [٣]

---

١) علي المسعودي ـ أسئلة الشمس ـ دار سعاد الصباح (ط١) ٢٠١٤م ـ الكويت.
٢) فضل الأمين ـ سعاد الصباح شاعرة الانتماء الحميم ـ شركة النور للصحافة والطباعة ـ (ط١) ـ بيروت.
٣) السابق ص ٢٠.

وإيقاع صوتك، إذ تضحكين
أحبك .. صامته متعبه ..
وأعماق عينيك إذ تحزنين
أحبك رغم حراب المغول
ورغم جيوش التتر
أحبك حين تكون السماء
مطرزة بالرعود ومثقوبة بالشرر
فكيف تصيرين أجل عند اشتداد الخطر

إلى أن تقول:

ويسعدني أن تظل بلادي
هزار البنفسج والشهداء

وتجسد الشاعرة في قصيدتها الآتية قمة المشاعر الوطنية والإصرار على التفاني والدفاع عن الوطن بشتى الوسائل من أجل رد المعتدين وتحرير البلاد:

نحن باقون هنا [١]
نحن باقون هنا
هذه الأرض من الماء إلى الماء.. لنا
ومن القلب إلى القلب لنا
ومن الآه إلى الآه لنا
كل دبوس إذا أرمى بلادي
هو في قلبي أنا

إلى أن تقول:

الكويتيون باقون هنا
الكويتيون باقون هنا
وجميع العرب الأشراف باقون هنا
الكويتيون باسم الله.. باسم السيف
باسم الأرض، والأطفال، والتاريخ
باقون هنا

١) ديوان برقيات عاجلة إلى وطني ص ٤٩.

نلثم الثغر الذي يلثمنا
نقطع الكف التي تضربنا

والإنتماء للأرض والعرض يستدعى نضالاً من أجمل التحرير:

سنرى الكويت مهما أفتدت الأيام[1]
ونرجع البحر إلى زرقته
سنرفع المصحف في يمنينا
ونرفع السيوف في شمالنا
ونهزم الغزاة مهما عربدوا، واستكبروا
... ...
سيرحل المغول
عن كل شبر من أرضنا

ومن ديار الغربة (لندن) توجه الشاعرة إلى وطنها ثلاث برقيات عاجلة مؤرخة في ١٩٩٠/١٠/٨م (زمان المحنة) ثم يعقب هذا النص نصان أخيران "من قتل الكويت" و "نقوش على عباءة الكويت" ومن العناوين تفوح رائحة الانتماء فتفعم العقل والمناظر.

أيا صباح النصر، يا حبيبتي الكويت [2]
أيتها العصفورة المائية، والرائعة الألوان
بعد شهور سبعة في قبضة السجان
طلعت مثل وردة بيضاء من دفاتر النسيان
فانتصرت سنبلة القمح على قاطعها
وانتصرت عصفورة الحب على صيادها

إلى قولها:

عزيزة، قوية، خفاقة الإعلام
بفضلكم عادت لنا ديرتنا
وعادت الأبراج والنوارس البيضاء، والحمام

---

١) السابق ص٤٧.
٢) جريدة الرأي ـ ثقافة ـ زاوية (ضوء) ـ العدد ١٠٦٩٦ ـ تاريخ ٢٠٠٨/١٠/١٣م.

وأخيراً:

يأتي مقال "بناية حب.. اسمها الكويت" كي يكون أول متن الكتاب في تواصل حسي متوهج **مع الوطن:** ...فالكويت بناية ارتفعت بحجارة الحب وبسواعد الكويتيين وعرقهم ودموعهم .ز وضوء عيونهم"

وتستطرد: والبنايات التي تبنى بالحب.. تزداد طوابقها ارتفاعاً مع الزمن وتزداد أساساتها قوة ومتانة. [1]

وهكذا فإن الوطن في قصائد سعاد الصباح لا يغيب، إنما يولد ويتجدد قصائد لا تضئ ولا تقترح فحسن، إنما تبني الوطن الحلم ، والإنسان الحالم ، تترجم هاجس أرض لا تنبت شجراً وعسلاً فحسب، إنما تلد الرجال والثوار والأحلام وكرنفالات الفرح كل هذا يوحى به انتماء سعاد الصباح الحميم.

ثانياً: الانتماء للعصر:

القبض على المعاصرة والحداثة في شعر سعاد الصباح. يكون يسيراً إذا بحثنا عنهما في مجموعتها المسماة: "في البدء كانت الأنثى"، والتي سبقت الإشارة إليها في الفصل الثاني من هذه الدراسة حين البحث عن مواطن الانتماء للأرض.

في هذه المجموعة تخرج الشاعرة لا على عمود الشعر وإيقاعه الغنائي وحسب، بل على خلوه وفراغه من هموم الحياة اليومية المعاصرة، ومن الرموز الدالة على العصر ، أو المنبثقة عنه. وهي تذهب في ذلك مذهب القائلين: "إذا أردت التجديد، فإنك لا تريده لنفسه، بل لأن لديك ما لا يمكن قوله إلا إذا جددت، وإذا جددت، محمولاً على لجج من معاناتك ومكتشفاتك، فأنت ملقٍ عنك بالقديم إلقاء تاماً لا ترد فيه" [2]

وهذا ما تفعله سعاد الصباح إذ تدير ظهرا لكل ما اعتادته من أساليب الشعر وقواله ومعانيه، وتأخذ طينة هي غير ما نص عليها غيرها من النحاتين، وتجبل منها وتشكل صوراً لم تعرفها الأعين من قبل، فما علينا إلا أن نعيد تكييف

---

١) جريد جريدة الرأي ـ ثقافة ـ زاوية (ضوء) ـ العدد ١٠٦٩٦ ـ تاريخ ٢٠٠٨/١٠/١٣م.

٢) جبرا إبراهيم جبرا: الحرية والطوفان ـ المؤسسة العربية للدراسات والنشر ـ ط (٣) ١٩٨٢ ـ بيروت ـلبنان.

أعيننا بالعدسات اللاصقة لكي ندرك هذه الصور. هذا ما يعنيه التجديد . الكشف، لاسيما إذا كان هذا الكشف متصلاً بالمألوف والعادي من الأمور ومن الرموز، تنتقي منه الشاعرة أغراض شعرها وأدواته، وتغزل منه مراياها التي تعكس صورة المعيش دون رتوش ولا ماكياج. فيجعل هذا الشعر إليك ما ومن يعج بهم شارع الناس، ويحملك أنت إلى ذلك الشارع ، ليعرض عليك مشهداً بانورامياً جميلاً ورائعاً للحياة كما هي في الواقع. أليست هذه هي المعاصرة بتمامها وكمالها؟. خصوصاً اذا وافتك بلغة عصرية مبسطة كلغة جريدتك اليومية ، أو كلغة تحقيق متلفز، أو كلغة فيلم سينمائي ، بحيث يسهل دخولك إلى النص ، ويتيسر نفاذ النص إلى وعيك؟ أتساءل: أليست هذه هي المعاصرة التي تنتمي إلى العام /٢٠٠٠/؟.

وإذا كانت هموم العصر وطقوسه ورموزه وسحنته هي الطابع الطاغي على نصوص الديوان، فإن الحب، كعلاقة إنسانية بين المرأة والرجل، هو النسغ الذي يسري في عروق النصوص من الدفة إلى الدفة.

كيف تدخل الشاعرة إلى عالم الرجل؟.. لا بل كيف يدخل الرجل إلى عالمها الشعري؟.

٩٦ نصاً هي نصوص هذه المجموعة. وللتعرف على ما زعمت وجوده من معاصرة فيها، أحيل القارئ إلى عدد من العناوين التي تشكل رموزاً للعصر الذي نعيش:

- التوقيت النسائي (بالمقارنة مع التوقيت الصيفي والتوقيت الشتوي، وتوقيت غرينتش) / كهرباء / الديموقراطية / شرعية / تعريف جديد للعالم / كيمياء / ألميناء الحر / إكسبرسو / قمع سياسي / لجوء غير سياسي / النص المفتوح / إلى روبوت عربي.

هذه العناوين مشتقة من قاموس العصر، وهي من مصطلحات الحياة اليومية المعاصرة ، نعثر عليها، بالحرف، في الجريدة والمجلة والنص الإذاعي أو التلفزيوني. بيد أنها ليست وحدها وبين النصوص التي تحمل طقوس العصر. فتحت العناوين الأخرى نقرأ العبارات التالية:

- اتركني نائمة خمس دقائق على كتفيك حتى تتوازن الكرة الأرضية / إشارات المرور / فصائل ثورية / مطب هوائي / التعددية النسائية / العصور

الماركسية / عصر حب النجوم / مصفح ضد الحب / آخر اهتماماتي أن يحبني كمبيوتر / مسجل على أشرطة /

- في أحد مقاهي المثقفين
- يعقد مؤتمراً صحفياً
- غرسونات المقهى
- في منظمة الدفاع عن حقوق الإنسان
- ثورة ثقافية
- لا يعتبر الجنس مطلباً قومياً
- ويعطونني أفضلية المرور
- هي التي تملك حق اللجوء
- فاستعمل مسدساً كاتماً للألم

هذه المصطلحات هي الجسور المكينة التي تربط نصوص الديوان بالحياة العصرية. يضاف إلى ذلك أن الشاعرة تخلت في معظم هذه النصوص عن عمودية الشعر وأحياناً عن غنائيته، ثم إنها استعملت لغة بسيطة ميسرة ، مشتقة من قاموس الناس لا من المعاجم، وموصولة بهموم الناس ومشاغلهم وهو أجسهم وأحلامهم، لا بالتاريخ وأخبار الأولين.

مما جعل النصوص عصرية بأغراضها، وعصرية بمصطلحاتها التعبيرية، وعصرية بكلماتها وألفاظها وأسلوبها البياني.

وهنا لابد من الإشارة إلى أن لي مذهباً يخالف ما توافق عليه حداثيو النقد ،الذي يزعمون أن الغموض هو معيار الحداثة لأنه سمة العصر وأرى أن الوضوح هو سمة العصر حقاً ، وأن بلاغة هذا الزمان تستدعى اليسر في التعبير، فزمان الرمزيين قد ولى كما ولى زمان التسطيح، وبقى زمان الكلمة الموصولة باهتمام الجمهور، ويأذنيه وعينينه وحواسه، وهي كلمة لا يستقيم معها التعتيم والتمويه والتعمية والغموض، كما يزعم فريق من الشعراء والنقاد.

فالمعاصرة، في يقيني، هي الإمساك بعلوم العصر والقبض على تقنياته، ومصطلحاته، والتعامل معها ومع ظواهره المتنوعة. ولن تكون أبداً مجرد صيغة بيانية من صيغ التعبير والدلالة. من هنا نسبة هذا الديوان "في البدء كانت الأنثى" والديوان الذي تلاه سابعاً في الترتيب: قصائد حب إلي لغة حديثة و متمايزة يطيب لي أن أسميها " اللغة الثالثة": حالة إبداعية ليست محاكاة للمألوف

من الكلام، مثلما هي ليست تنقيحاً لنتائج متداول ، ولا انتقاء من تراث، بل هي اختلاف عن جميع تلك الحالات، وتشكل صيغة إبداعية لم تعرفها لغة العموديين المبسطة، مثلما لم تعرفها لغة الحداثويين المغلقة.. إنها ليست هذه ولا تلك، ولا هي حالة بين بين، بل هي تمايز ذو خصوصية وتقنية، مثلما للشريط السينمائي خصوصيته وتقنيته، ومثلما للمشهد المسرحي وللوحة أو المنحوتة تقنياتها، وأساليبها التعبيرية الخاصة.

وإذا كانت الشاعرة قد وفقت إلى اصطناع هذه اللغة الثالثة، فإن الثابت أنها طورت هذا الأسلوب وطوعت تلك القواعد، فألبست المعنى ما يناسب قده من الألفاظ، ولم تقع في آفة التكرار، لا في اللفظ والتعبير، ولا في الصورة والمعنى.

وإلى هذه اللغة وتلك المصطلحات أضافت الشاعرة الموقف العصري، فشكل موقفها من الحياة والناس، من الرجل والمرأة، من الحاكم والقانون، من العلم وإنجازاته، ومن التراث والتاريخ ودروسهما، من الدين والتقاليد، من الله خالقاً.. ومن الفن والشعر أخيراً...

لنسمعها تخاطب الرجل:

ورغم كلامك عن المعاصرة لست معاصراً ورغم أسفارك فإنك لم تبرح خيمتك، مشكلتك الكبرى أنك لاتزال إقطاعياً في العصور الماركسية، ولا تزال قبلياً في العصور الليبرالية، ولا تزال متمسكاً بناقتك في عصر حب النجوم.

ولنقرأها في هذه الكلمات:

يقولون: إني كسرت رخامة قبري
وهذا صحيح
وإني ذبحت خفافيش عصري
وهذا صحيح..

إن هذا الخطاب المعاصر يملأ مساحة الديوان في المجموعات السبع، ثم هو جزء من السلوك.

إن علاقتها بالعصر أصبحت مسألة لا يمكن الإشارة إلى توهجها من خلال مكمات قليلة.. إنها مسألة نتدرج في متونها الحياة بكل موجوداتها، ولحظات مرصودة بأحاسيس تتحين الفرصة من أجل إبراز الجمال في كل صورة وتداعياته وألفه.

إننا حينما نسعى إلى التوقف عند كتابات سعاد الصباح ستجد أنك أمام رؤى إنسانية مزادنه بالحلم والحب والالتصاق بالعصر وكل ذلك يمنع الإنسان الإحساس بمعناه الحقيقي.

وتتواصل مع العالم من خلال الحضارات الإنسانية كما تقول في "تعال إلى جزيرتي.. تعال إلى باربيدوس و "دمعتان في بيت موزارت" و "كويتية في فينيسيا" و"قفائبك.. على جدران بولين" [١]

المبحث الثاني : طبيعة التشكيل الرومانسي

أولاً : الحب والحرية:

إن رؤية سعاد الصباح للحب تنسجم مع موقفها الثوري المناصر لقضايا المرأة، فهي ترى أن من حق المرأة أن تحب وأن تعبر عن هذا الحب بأعلى صوت، فلا حجر على مشاعرها أو صوتها .. إنها تدعو إلى المساواة العاطفية بين الجنسين، فإذا كان من حق الرجل أن يحب وأن يصرح بمشاعره، هذا حق مشروع للمرأة كذلك. وقد عبرت الشاعرة عن رؤيتها تلك في مقدمة ديوانها (قصائد حب)، فقالت: (هذه قصائد حب لا حدود لها .. إنها محاولة لهدم كل الحيطان الحجرية التي تفصل بين الأنثى وأنوثتها .. بين المرأة وبين حقها الطبيعي في أن تتنفس . وتتكلم.. وتعيش وإذا كان حق المرأة في الكلام العادي حقاً مرفوضاً ومكروهاً ومستهجناً في المجتمعات المتضخمة الذكورة، فإذا الكلام عن الحب في تلك المجتمعات يعتبر فضيحة كبري وجريمة موصوفة .. فالصوت الأنثوي كان من خلال مراحل تاريخية طويلة مرتبطاً بفكرة العار والعرض والشرف الرفيع، حتى وصل الأمر ببعض الغلاة والمتزمتين إلى أعتبار صوت المرأة عورة لا يجوز كشفها للسامعين. ولقد قاتلت المرأة طويلاً لاستعادة صوتها المحجوز عليه، والخروج من مرحلة الخرس الطويلة، حتى تمكنت من إعادة تشغيل حنجرتها بعدما غطاها الصدأ نتيجة لعدم التدريب وقلة الاستعمال. إن الحجر على صوت المرأة ووضعه (تحت الحراسة) جعل المجتمع العربي ينطق بصوت واحد هو صوت الرجل بكل خشونته وملوحته ونبرته المعدنية ..

---

١) مختار أبو غالي ـ قضايا وأدوات : دراسة في شعر سعاد الصباح القاهرة ٢٠٠٣م.

وهكذا لم تعرف موسيقانا (نصف الصوت) أو (ربع الصوت) وظلت السيمفونية التي عزفها كورس الرجال وحدهم .. سيمفونية ناقصة.

في بدايات هذا القرن، بدأت المرأة تتخلص شيئاً فشيئاً من الحجاب المفروض على ووجهها .. ولكن الحجاب المفروض عل (صوتها) لم يتزحزح سوى سنتيمترات قليلة .. وظلت المرأة رغم انفتاح أبواب العلم والمعرفة أمامها ، واتساع أفقها الثقافي تعبر عما يدور بعالمها الداخلي بنصف لغة ونصف صوت ونصف حرية .. فالمجتمع العربي لا يزال رغم التحولات التي طرأت على بنيته، يعتبر الصوت النسائي مؤامرة على دولة الرجال وسلطتهم ، ويعتبر المرأة (الفضيحة) ظاهرة شاذة أو مرضية لابد من معالجتها بالعقاقير والمضادات الحيوية. وهكذا ظل فم المرأة مختوماً بالشمع الأحمر وغير صالح إلا لإرتشاف الماء ومضغ الطعام ومثل هذا الامتياز تتمتع بع جميع الحيوانات بشكل غريزي.

تقول سعاد الصباح:

أردت أن أحقق نوعاً من الاشتراكية العاطفية بعيداً عن أي فكر إقطاعي أو قبلي أو احتكاري .. وأن أسترد حقي الطبيعي بأنني في نقل مشاعري إلى من أحبه دون أي شعور بالنقص أو بالاضطهاد أو بالخروج على قواعد الأخلاق العامة فالحب الكبير لم يكن في يوم من الأيام مناهضاً للقيم العليا ، والأخلاق العامة إنه حق مشروع لا يختلف عن حق الأمواج في التكسر وحق الرعود في التفجير وحق العصافير في الغناء والزقزقة .. فلماذا لا يسمح لي أن أكون موجة أو رعداً أو عصفورة تغني على نافذة حبيبها دون أن تقتلها بوارید الصيادين [1]

بهذا البيان العاطفي الثوري تعبر سعاد الصباح عن رؤيتها للحب، وتسعي إلى هدم كل الحيطان الحجرية التي تحول بين المرأة والإفضاء بمشاعرها الأنثوية الخاصة في ظل مجتمعات متحجرة تري أن كلام المرأة عن الحب أو الجهر بمشاعرها عار وفضيحة وجريمة أخلاقية كبري، وتطرح عدة تساؤلات تدين تلك الأفكار المتحجرة، وتؤكد الظلم الواقع على المرأة، في تلك المجتمعات الذكورية التي تعطي للرجل الحق في الحب والبوح وتحرم المرأة من هذا الحق؟ وتؤمن

١ فوزي عيسي وزملائه – دراسات في شعر سعاد الصباح مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب (ط ١) – ٢٠٠٤م – صـ ١٤

الشاعرة أن الحب الكبير حق مشروع للرجل والمرأة سواء بسواء، وأنه لا يتناقض مع القيم العليا والأخلاق العامة باعتباره عاطفة إنسانية سامية .

إن الشاعرة تطالب أن تتجاوز هذه المجتمعات أفكارها المتحجرة وتمنح المرأة حق (البوح) دون أن تتهم بالفجور أو أن تتناوشها السهام، وتسعى الشاعرة إلى تحطيم (الفيتو) الذى تضعه هذه المجتمعات على المرأة العاشقة، وتدعو إلى إيجادها ما تسميه (ديمقراطية عاطفية) يتساوى فيها الرجل والمرأة في حرية البوح.

إن الشاعرة تؤمن بالحب النبيل الذى يحترم إنسانيتها وأنوثتها وينظر إليها كامرأة لها كيانها وعقلها لا مجرد أنثى تشبع غرائز الرجل، إنها تؤمن بالحب الثوري الذى يخترق العادات البالية والأفكار المتحجرة .. الحب الذى يحطم الجدران والأسوار والحدود ويسبح ضد التيار .. الحب الذى يثور على الأصول والجذور والنظام ويحاول أن يغير كل شئ يتسم بالخوف والسلبية في قواميس الغرام .. الحب الذى يرتفعوا الأنانية والتملك.

وتؤمن بالحب الجنوني .. الانتحاري .. الطفولي .. تقول
وكيف أقول بأني أنثي [1]
إذا لم أخبئك تحت الجفون؟
وما قيمة العشق، يا سيدي
إذا لم يسافر ببحر الجنون؟؟
وتقول
حبي انتحاري
فلو رميتني في البحر، ذات الماء..
حبي طفولي
فلو لمست خصري مرة..
حلقت بين الأرض والسماء

الحب – عند الشاعرة – أرحب من جميع الأزمنة ومن جميع الأمكنة .. الحب هو الحياة .. وهو القيمة الكبرى التي لا تنتمي لسواها.

١ ديون فتافيت إمرأة – دار سعاد الصباح للنشر (ط ١) الكويت – ٢٠٠٨ م

انتمائي هو للحب..
ومالي لسوي الحب انتماء
وطني..
مجموعة من شجر الليمون في صدرك
والباقي هراء بهراء

الحب هو المعنى الوحيد الذى يمنح الحياة لونها ويبث الروح في الجماد ويمحو القبح ويواجه الشر والظلام .. وهو ما يجعل الشاعرة تقاتل من أجله .

يا سيدي .. [1]
سوف أظل دائماً أقاتل
من أجل أن تنتصر الحياة
وتورق الأشجار في الغابات
ويدخل الحب إلى منازل الأموات
لا شئ غير الحب ..
يستطيع أن يحرك الأموات

هذا هو الحب الذى تؤمن به الشاعرة .. الحب الكبير الذى يحتوي الكون والحياة ويمنح الوجود لوناً فريداً من البهجة والنشوة .

وفى غزلها الجديد (بالنسبة إلى زمان ظهوره) ، تخرج الشاعرة من جلد المرأة ، ومن جلد الصديقة ، ومن جلد (القطة) ، ومن جلد (المملوكة) ، ومن جلد (النمرة) ، وتدخل في جلد الشاعرة التي (ترتكب) كلام الحب فتعلن مره أنها (متورطة) معه ومرة أنها تعرضت الى (فضيحة) بسبب حبها له .. ومرة ثالثة تطلب الاستشهاد من أجله :. [2]

أصعد إلى سقف القمر
لأقطف لك قصيدة .
أصعد إلى سقف القصيدة
لأقطف لك قمراً ..

---

١ الديوان السابق

٢ محي الدين صبحي – ٧٩ الرومانسية والغناء في شعر سعاد الصباح – مطابع الهيئة المصرية للكتاب – القاهرة ٢٠٠٤ م

أصعد إلى فضاءات
لم تصعد إليها امرأة قبلي
وأرتكب كلاماً عن الحب
لم ترتمبه سيدة عربية قبلي ..
ولا أظن أنها سترتكبه بعدي ..
أتورط معك حتى نقطة اللارجوع
وأمشى معك بلا مظلة
تحت أمطار الفضيحة ..
أذهب معك إلى آخر نقطة في اللغة
وآخر نقطة في دمي ..
حتى أستحق أن أكون حبيبتك ..
أطير ألف سنة ضوئية
حتى أحط على كتفيك ..
وأحلق على إرتفاع ٣٢ ألف قدم
حتى ألامس يديك ..
فإذا وصلت إليك
مهمشمة .. محطمة .. كقطار خرج عن قضبانه
فحاول أن تلصق أجزائي
أيها الممثل الكبير
الذى قتلته نجوميته.
ليس لدي أمل
حتى في الحصول على توقيعك ..
فأنا أصل دائماً
بعد أن تسقط الستارة ..
وتطفأ الأنوار ..
وينصرف المتفرجون .. [١]

١ ديوان فتافيت امرأة – صـ ١٧

الرجل هنا معشوق، ومسافر يرتحل كغجري، ومتقلب الهوى مترجرج كالزئبق، ونرجسي وممثل.. اما هي فأنها رغم التحولات والتبدلات والتقمصات الموهومة، تظل المرأة العاشقة الوفية الحنون، وتظل معتصمة بالذرية والأخلاص، وبالحب الكبير للحبيب الكبير: الزوج .

وتبقى تقليدية وشرقية في الحب رغم مصطلحات الحداثة التي تعمر النصوص، وتبقى محافظة، رغم رياح الحرية التي تعصف بين الصور والكلمات، وتبقي العاشقة الضعيفة، رغم استعراض القوة .

أسميك
_ حتى أغيظ النساء _
(حبيبي)
_ وحتى أغيظ عقول الصفيح _
(حبيبي)
وأعرف أن القبيلة تطلب رأسي
وأن الذكور سيفتخرون بذبحي
وأن النساء ..
سيرقصن تحت صليبي ..

في خطاب العشق تصعد سعاد الصباح إلى سقف القمر لتقطف قصيدة للعاشق، وتصعد إلى سقف القصيدة لتقطف له قمراً، وترتكب كلاماً عن الحب لم ترتكبه سيدة عربية قبلها ، ولا أظن أن شاعرة سترتكبه بعدها.

ولأنك تحبني
فإن العالم صار أكبر
والسماء أوسع
والبحر أكثر زرقة
والعصافير أكثر حرية
وأنا ألف .. ألف مرة أجمل [١]

إن الشاعرة عندما تحب تتجاوز حدود العلاقة الخاصة لتدخل في علاقة حب مع العالم كله وتشعر أن العالم كله صار وطناً لها

١ ديوان في البدء كانت الأنثي صـ ٢٥

حين أكون بحالة عشق [١]
أشعر أن العالم أضحى وطني
وبإمكاني أن أجتاز البحر
وأعبر آلاف الأنهار
وبإمكاني
أن أنتقل دون جواز
كالكلمات ... وكالأفكار

إن الحب طائر أسطوري يحمل الشاعرة فوق جناحية إلى عوالم حليمة أثيرية شفافة

حين أكون بحالة عشق[٢]
أشعر أني صرت بوزن الريشة

يتسم خطاب العشق عند الشاعرة بالجرأة.. والثورية على نحو لم نعهده في الشعر العربي من قبل اللهم إلا في ومضات عند بعض شواعر الأندلس أمثال ولادة بنت المستكفي وحفصة الركونية ونزهون الغرناطية اللاتي تمتعن بمساحة من الحرية في البوح والتعبير.

إن خطاب العشق عند سعاد الصباح مغاير للخطاب الشعري الأنثوي المعاصر الذى أتسم في أغلبه بالخفوت والحياء واكتفى بالتحليق في فضاءات وتهويات رومانسية.

إن خطاب العشق عند سعاد الصباح لا حدود له من حيث البوح والتعبير عن المشاعر والأحاسيس الداخلية.. خطاب يهدم الحواجز التي أقامتها بعض المجتمعات العربية لتحول بين المرأة والتعبير عن أحاسيسها الأنثوية.. خطاب يرفع الحجاب المفروض على صوت المرأة ويزيل أختام الشمع الأحمر الموضوعة على فمها.. خطاب يجعل المرأة شريكاً للرجل في الحب، ويحق المساواة العاطفية باعتبار الحب عاطفة إنسانية يشترك فيها الرجل والمرأة .

إن الشاعرة في خطاب العشق تمارس حقها الطبيعي كامرأة في نقل مشاعرها إلى من تحبه ، وتكسر احتكار الخطاب الذكوري الذى يستأثر وحده بالتعبير

١ ديوان إمرأة بلا سواحل صـ ٣٥
٢ السابق ص٣٥ـ

والبوح.. إنه خطاب جديد يختلف عن الغزل النسائي الذى ظل غزلاً خجولاً ومتردداً وخائفاً من لعنة المجتمع وخناجر القبيلة.. ويمتزج هذا الخطاب بالثورية والتحدى.

يا سيدي : [1]
مشاعري نحوك ، بحر ما له سواحل ..
وموقفى في الحب .. لا تقبله القبائل ..
يا سيدي :
أنت الذى أريد ..
لا ما تريد تغلب ووائل ..
أنت الذى أحبه ..
ولا يهم مطلقاً
إن حللوا سفك دمي ..
واعتبروني أمرأة ..
خارجة عن سنة الأوائل

إن خطاب العشق عند سعاد الصباح خطاب ثوري يفجر الداخلية ، ويطلق آلاف العصافير المحبوسة في صدرها ، ويعيد تشكيل الأنوثة من جديد ، ويذهب إلى آخر حدود الحرية .

أخرج على النص القديم للأنوثة [2]
وأخترع أنوثتي كما أريد ..
وأحدد مكان شقتي .. وألوان عيني .. كما أريد
أخرج من عباءة عنترة بن شداد
وأدخل تحت عباءتك ..
أهرب من فراشي المصنوع من وبر الجمل
وأستلقي على أعشاب صدرك ..
أخرج من بطن الخرافة
وأسنان شيخ القبيلة ..

١ ديوان أمنية ص١٥
٢ ديوان في البدء كانت أنثي ص٢٥

وفناجين القهوة العربية ..
وأخلع الحذاء الصيني الضيق
من عقلي .. ومن قدمي ..
وأذهب معك إلى آخر الحرية

إن الشاعرة تذهب في كتاب العشق إلى آخر الجنون وإلى آخر التحدي .. وإلى آخر حدود الأنوثة .. وهو ما يجعله خطاباً صادماً للمجتمع القبلي .

وسعاد الصباح تجربة إبداعية ملئية بالتساؤلات، لكنها في الوقت ذاته تؤسس لا لانقاص أنثوي من سلطة ذكورية ، لقد قررت سعاد الصباح في أول قصيدة لها ديوانها أنها امرأة من مكان بعيد فهي تغتر بأنوثتها وتلفت الانتباه إليها لكنها في الوقت ذاته تصرح بأنها امرأة استثنائية من مكان استثنائي.

أنا امرأة من فضاء بعيد
ونجم بعيد

لقد نأت الشاعرة بتفكيرها عن واقعها الذي ترفضه ووضعت نفسها في فضاء بعيد وفى نجمم بعيد عن المجتمع الذى ظل الغزل الأنثوي فيه غزلاً خجولاً ، ومترديداً وخائفاً من لعنة المجتمع .. وخناجر القبيلة . وارتكزت في هذا على تشكيل فني خاص ،تؤسس لحالة أنثوية خاصة تخرج معها من الديوان إلى الصلابة والتحدي غير آبهة بالوعيد فلا بالوعود ألين – ولا بالوعيد .

إن الشاعرة التي ثارت في وجه القبيلة لأنها حجرت على صوت المرأة ، لا تجد حرجاً في استخدام لغة الجسد فتخاطب الحبيب بمثل هذا الخطاب الإيرونيكي [1]

على يديك
اكتشفت للمرة الأولى
جغرافية جسدي
تلة .. تلة ...
ينبوعاً ... ينبوعاً ...
سحابة ... سحابة ...
رابية ... رابية...
إنني مدينة لك

١ ديوان في البدء كانت أنثي صـ ٧١

بكل لوزي
وخوخي وتفاحي
مدينة لك
بكل هذا التنوع في أقاليمي
وكل هذه الحلاوة في فاكهتي

إن الذاكرة عند سعاد الصباح مخصبة تخصيباً عالي الحركة والقوة فالقهر في كل مكان وملايين الشموس المستنفرة – كما تقول – تختبئ تحت جلدها لتؤكد أن القهر – مهما كان قوياً – لن يستطيع أن يصمد فمن صفات الشمس الواحدة أنها تضئ الكون كاملاً، وحالة القهر التي تختزلها ذاكرة الشاعرة في أعماقها لم تجعل منها امرأة مهزومة وإنما ولدت لديها شعوراً بالغين الذى حرك فيها الذات الطامحة إلى الانفلات من التسلط والقهر، وولدت لديها حالة من الوعي والنضج الذى اقتحم صمتها وسلوكها على شكل شموس تعبئ الذات بالأمل للخلاص من القهر والألم تقول:

بدوية أنا اختزن في ذاكرتي [١]
عصوراً من القهر ..
ويختبئ تحت جلدي ملايين الشموس

ففي هذا المقطع تأكيد (الأنا) البدوية المقهورة وقد كررت (الأنا) في غير طريقة في هذا المقطع (فبدوية أنا و أختزن أنا و في ذاكرتي أنا) والأنا هنا ليست أنا الشاعرة فحسب وإنما هي أنا المرأة العربية البدوية التي تعيش القهر في مجتمع يلغي دورها ولا يستمع لرأيها ولا يسمح لها أن تقرر مصيرها أنما الشاعرة الثائرة باسم المرأة العربية النخلة بطولها وقوتها وصمودها في وجه قسوة الصحراء حرها وبردها وهى صامدة تعطي ، ولهذا حق لها أن ترفض وتناوم وأن تثور على واقع يظلمها ، وتطلب أن يكون لها دور في صياغة المجتمع .

أنا النخلة العربية الأصول
والمرأة الرافضة لأنصاف الحلول
فبارك ثورتي

١ الديوان السابق صـ ٤٥

لقد زرعت سعاد الصباح بأسئلتها دهشة معلنة في محيط القبيلة المأخوذة بجرأة امرأة

تكتب شعراً ثورياً لا لتوقعه باسم مستعار ولا لتخفيه في الدرج السري لخزانة ملابسها ولكن لتنشره على الملأ سارحاً في فراغ مهيب من ذوق موروث ورهبة مزمنة وكثير عن الأحلام المكسورة وهى لم تصر فقط على الكتابة بل أصرت كذلك على الخصوصية والجرأة فيها حتى وهى تكتب عن المنطقة الحميمة في حياة المرأة الشرقية

يقولون إن الكتابة إثم عظيم ...
فلا تكتبي
وإن الصلاة أمام الحروف ... حرام...
فلا تقربي
وإن مداد القصائد ... سم ...
فإياك وإن تشربي
وهأنذا
قد شربت كثيراً
فلم أتسمم بحبر الدواء على مكتبي
هأنذا
قد كتبت كثيراً
وأضرمت في كل نجم حريقاً كبيراً
فما غضبت الله يوماً علي
ولا استاء مني النبي [١]

وتقول

أريد أن أكتب إليك
لا لأرضي نرجسيتك كما تظن
ولكن لأحتفل
ربما للمرة الأولى ... بميلادي كامرأة عاشقة ...
وبتفجير انفعالاتي في وجه هذا العالم

١ ديوان قصائد حب صـ٤٥

فهل في مثل هذا ريادة ما ؟ [1]
إنها تمشي فوق الغيم ، وتسرق ضوء الشمس وتصطاد الأقمار دون خوف
ويعجنني كل ليلة ..
بالقرفة .. والزعفران
والبهارات الحارقة

هكذا استطاعت الشاعرة – من خلال تلك اللغة الايحائية المتوهجة – أن تمزق الحجاب المفروض على صوت المرأة ، وأن تعبر بحرية عن عالمها الداخلي بكل ما يمور به من براكين ورغبات ، وأن تمارس حقها المشروع الذى لا يختلف عن حق الرعود في إحداث التفجر والصوت المدوي دون أن ترعبها بنادق المجتمع الذكوري.

ثانيا: الفقد "– الحزن – والشكوى":

قدمت سعاد الصباح تجربتها الإبداعية عن الحزن والشكوى بقصائد دالة موحية ونجحت في تشكيل الحدث بأسلوب تصويري بديع يظهر فيه فضاءات الحزن الذى طوق حياتها وحاضر بصورة خليعة أيامها ولياليها وماضيها وحاضرها حتى أنك لتشعر أنها تتنفس الحزن والمعاناة من خلال قصائد ومقاطع الحزن التي زخرت بها دواوين الشاعرة فالحنين الهائل، والفقد العاصف، والرغبة الشديدة في الاحتماء، والخوف من أعاصير ما بعد الرحيل، وبرودة ما بعد الفراق ووحدة السنوات الموحشة تتداعى جميعها واحدة بعد الأخرى، وتهوى طرقاتها العنيفة مع كل دفقه نبض ومع كل وقفة تأمل والتفاته هذا الشعور بالافتقاد يغمر جو القصائد بأطياف اللون البنفسجي ودرجاته، وتتحلى كذلك في رسوم الشاعرة التي جاورت قصائدها حزينة باكية بالرغم من ألونها الصارخة

١ ديوان أمنية صـ ٢٥

وكأنها رد على طقوس الموت والرحيل، بالرعبة في تأكيد صور الحياة والنماء، يتدرج فيها اللون الأرجواني كدم مسكوب، ويتوهج الأخضر من نحن أقنعة العزاء والمواساة.

القصائد لوحات مرسومة. واللوحات قصائد مكتوبة والقصائد اللوحات تشكل في عناقها الحزين، محاولة لتجسيد قامة إنسانية تشمخ في وجه المعاناة، وتنكسر في داخلها لوعة ومشاركة .

وفقدان الزوج والحبيب والمعلم هو أول مأساة قصمت ظهر سعاد الصباح وكسرت قلبها وهو الفقد الذى فقدت معه العصا التي كانت تتوكأ عليها والوطن كما تسميه الذى فقدته فتبعثرت حياتها وتغير مسارها ربما لأن فقد الزوج والحبيب اختلط بالحزن لفقد الوطن وضياعه، وبالأسي واللوعة فجاءت قصائدها تجر خلفها الجرس الجنائزي وموسيقاه المنبرية التي تحاكي برنتها قرع الطبول الأحزان التي تترك خلفها صدى مديراً تقول سعاد الصباح .

أنت يامن كنت في ليلي مصابيح نهار [١]
أنت يامن كنت في صحراء أيامي خضراء
لا تسالني عن حقوقي، فهي في غير قرار
لا تسألني عن همومي، فهي في غير قرار
لا تسألني عن دموعي، إنها ماء ونار
تلتقي فيها البراكين بأمواج البحار
وأنا أرخي ابتساماتي على الحزن ستار
وتحت عنوان "سؤال" نقرأ هذه الدمعة
رفاقك الصغار يسألونني عن الخبر [٢]
شهران مرا والمبارك الحبيب ما ظهر
فإن أقل : مسافر، قالوا : إلى متى السفر ؟
قد أقبل الصيف على شاطئنا وما حضر

وتواصل الشاعرة تقديم صورتها بعد وفاة حبيبها فالوطن ليس الوطن، فهو يتفتت تحت أقدامها كزجاج مكسور، وكأن التاريخ عندها قد توقف، لأن سائق

١ ديوان آخر السيوف صـ ٥١
٢ السابق صـ ٥٦

العربة "زوجها قد مات" فتغير حالها، فلم تعد قادرة على الحب ولا على الكراهية، ولا على الصمت ولا على الصراخ ولا على النسيان أو التذكر، فكأنها تبلدت لأن أشواقها ذهبت إلى مكان بعيد، فأصبح قلبها فاسداً لا يصلح لشيء تقول:

لم أعد قادرة على الحب .. ولا على الكراهية [1]
ولا على الصمت ولا على الصراخ
ولا على النسيان ولا على التذكر
لم أعد قادرة على ممارسة أنوثتي
فأشواقي ذهبت في إجازة طويلة
وقلبي علبة سردين انتهت مدة استعمالها.

وفى القصيدة نفسها تتحدث عن الوحدة والفقد وعن الذاكرة وعن الحزن والضجر الموجود في كل مكان، وتتحدث عن تفاصيل الفجيعة مستخدمة أشياء حسية تذكرها بالماضي الجميل في مقاهي العالم، وبالفناجين التي تروح وتجئ، فالحزن هو الحاضر الصديق والضجر هو الرفيق، والساعة وحقيبة اليد من عناوين الذكري في ذلك المكان تقول:

ماذا أفعل بالفناجين التي تأتي ... وتروح؟
وبالحزن الذي يطلع كل ربع ساعة
حيناً من ميناء ساعتي
وحيناً من دفتر عناويني
وحيناً من حقيبة سفري ؟

وحاولت الشاعرة أن تخصب ذاكرتها بالكلمة فلعبت بالنار، وفتحت كما تقول قبرها بيدها، عندما قررت أن تعود بذاكرتها إلى "رسائلي القديمة" فاحترقت أصابعها ثم احترق المصباح الذي تقرأ علي ضوئه ثم احترق سريرها ثم احترق ثوب نومها فأصبحت كوم رماد لقد وضعت نفسها في حالة سوداوية مرعبة

١ ديوان آخر السيوف صـ ٢٤

عندما فكرت أن تعود إلى الذاكرة المكتوبة وكان عليها ألا تدخل هذه المغامرة المرة، خاصة أنها تتعامل مع ذكريات الإنسان الذى ترك فراغاً في حياتها، وفي تفاصيل أيامها الصغيرة كلها، فمن الطبيعي أن تكون هذه الرسائل قنابل ملغومة تحرق الأخضر واليابس.

" وهذا ما فعلته هذه الليلة [١]

حين فتحت النار على ذاكرتي

وأيقظت الشيطان من نومه "

لقد أثارت هذه الرسائل في نفس الشاعرة ذكريات قاسية فهي بالنسبة لها مذبحة حقيقية، وتجربة دامية جعلت الشاعرة كالدجاجة لا رأس لها:

قراءة رسائلي إليك بعد أعوام من رحيلك

مذبحة حقيقية

وها أنذا أخرج من تجربتي الدامية [٢]

كدجاجة لا رأس لها...!!

وتعد قصيدة "آخر السيوف" أفضل قصيدة كتبتها الشاعرة والتي تعبر عن حرارة الفقد والحزن والقصيدة من ٣٥ بيتاً جاءت على البحر الكامل (متفاعلن، متفاعلن، متفاعلن) رسمت بريشة فنانة مبدعة، بنبرة شفافة حزينة، بلغتها وإيقاعها، وحرارتها، وعاطفتها، منسابة كالماء الرقراق لكنها تقطر دماً ووجعاً تختار منها هذه الأبيات: [٣]

يا خيمتي وسط الرياح من الذى

سيلم بعدك دمعي المنثورا؟

يامن ذهبت، وما ذهبت، كأنني

في الليل أسمع صوتك البلورا

أنت الربيع فلو ذكرتك مرة ...

١ ديوان قصائد حب لا حدود لها صـ١٧

٢ السابقة ٍ١٩

٣ انظر ديوان آخر السيوف من ١٥- ٣١

صار الزمان حدائقاً ... وعبيراً
أأبا مبارك لو هناك مدامع
تكفي ... لفجرت الدموع نهورا
من ذا يغطينا بريش حنانه ؟
من يملأ البيت الكبير حضوراً ؟

وتمتد موجة الفقد والحزن وتتعمق في أوصال سعاد الصباح حتى تغرق وتختنق و تستقر هذه الصرخة المدوية من قلب "أم ثكلي" فجعتها المبنية بفلذة الكبد وأمل المستقبل، وهى تصور لحظة الاحتضار في طائرة الموت : [1]

صاح بي طفلي المغدى وهو مخنوق الأنيين
ويك أمي .. أدركيني .. ويك أمي أنقذيني ..
أسعفيني بهواء من صمام الأوكسجين
وخذيني في ذراعيك لأرتاح .. خذيني ..
قبليني .. قربيني .. عانقيني .. أدفئيني
إنني أشعر بالرعشة ستري في وتيني

وتكبر الفجيعة حين تتجدد مع ذكرى عيد ميلاده أو زيارة قبره، أو رؤية غرفته بكل من تحويه من ثياب وكتب وألعاب :

غرفة تبكي على سيدها بالحسرات
لعب تبحث عن لاعبها دون أناة
كتب تسأل عن صاحبها أنى مواتي
صور مجلوة الحسن بأحلى البسمات
آه من ناري، ومن يأسي، ومن ضعف ثباتي
قد توالت حسراتي، وتهاوت خطواتي
لا تري عيناي غير الليل يانور حياتي[2]

١ ديوان إليك يا ولدي
٢ الديوان السابق صـ٥٨

ويزيد في العذاب تساؤلات الإخوة الصغار الذين لا يعرفون أن أخاهم ولى إلى غير رجعة، ولا يعرفون أن الموت طريق واحد فتكون الإجابة أكثر وجعاً :

سألوا .. أين أخوهم .. أهو ماض ؟ أهو آت ؟
قلت : والدمع السخين ذائب في نبراتي
إنه في الغيب .. بين السحب،، فوق النبرات [1]

وفى قصيدة من أمنية إليك مبارك يجسد الحوار الباكي الحزن والفقد في أصدق وأوجع صورة وقد غمر الحزن كل زوايا الحياة :

يا أخي .. أصبح لي اليوم من العمر سنة
قم .. وهنئني ببعض البسمات المحسنة
عد .. وهب لي زهرة أو سوسنة
عد .. وبدد من سماء البيت غيم المحزنة
جافت الأنغام بيتاً، كنت فيه أرغنه .. [2]

إلى أن تقول :

يا أخي .. ما عيد ميلادي سوي يوم كئيب
بعد أن غيبت عنا أيها الوجه الحبيب
لم يعد في البيت إلا الصمت، يتلوه النحيب
لم نعد إلا غريباً يتأسى بغريب
وأباً يسأل ما الخطب .. ؟
وأماً لا تجيب .. !

وأخيراً قصيدة "موعد في الجنة" حيث يمتزج فيها الشعور الشخصي بحزن الأيام وينتهي بالأمل في اللقاء في جنة الخلد :

أيا لوعة قلب الألم إن ماتت أمانيها
فلا الشكوى تؤانسها ولا الصبر يواسيها
تولت فرحة الدنيا فعاشت في مآسيها

١ الديوان السابق صـ٥٩
٢ الديوان السابق صـ٤٠-٤١

إلى أن ينتهي العمر ويدعو الروح باريها
لتسمع في جنان الخلد فلذتها تناديها ..[1]

إلا أن الحزن والشكوى لم تقف عند حد الهم الفردي بل تجاوز ذلك إلى الهم الجماعي والقومي والإنساني ذلك الحزن والهم الذى تستشعره بشكل متواصل لأنه يشكل جزءاً من فطرتها وذاتها ويعمق حزنها ونجحت في توظيف أحاسيسها لتكون منطلقاً يستدعي مدلولات أخري تناسب الألم، والحزن، والقلق، والوحدة، والفزع، والشكوى، والمرارة ومن خلال أحاسيسها تلك حشدت في شعرها مدلولات جعلت من هذا الحزن حزناً كونياً وإنسانياً يصور رؤية الشاعرة وانطباعها عن وضع الإنسان العربي في هذا الكون لقد فارقها زوجها فبكته، ثم فارقها إبنها فبكته وبكت حالها، ثم تحل الكارثة الكبرى والنكبة العظمى حين تفقد وطنها عندما وقعت كارثة الغزو العراقي المشؤوم عام ١٩٩٠م فتبكي الوطن الكويتي وتصور كيف أصبح حالها بعد المحنة .

في قصيدتها "القصيدة السوداء"
كم غيرتني الحرب .. يا صديقي
كم غيرت طبيعتي
وغيرت أنوثتي
وبعثرت في داخلي الأشياء
فلا الحوار ممكن
ولا الصراخ ممكن
ولا الجنون ممكن
فنحن محبوسان في قارورة البكاء ..
يا سيدي ما عدت بعد الحرب .. أدري من أنا ؟
أقطعه جريحة ؟ أم نجمة ضائعة ؟
أم دمعة خرساء ؟

١ الديوان السابق صـ ١٤

أم مركب من ورق [1]

تمضغه الأنواء

أين ياتري سنلتقي

وبيننا مدائن محروقة

وأمة مسحوقة ..

وبيننا داحس والغبراء

وقد عبرت الأديبة عن قلقها ووجعها القومي، وخوفها من نتائج الكذب والتشرذم، والاتجار بالأوطان، بتصوير الواقع بكل مآسيه وأوجاعه وأمراضه، فالمجتمعات العربية تعانى التخلف [2]

والإنسان العربي استسلم إلى شبقه الاستهلاكي، هارباً من قيمة وتاريخه وعلومه الدينية الأصلية، ومارس وجوده في مكان واحد لا يتخطاه، هاجسه البحث عن وسيلة يضمن بها المكان ويبقي فيه، فالتغيير ليس من صلاحياته، إنه حكر على السلطة المدنية التي تستخدمه وسيلة إلهاء، في أمة تتناول الشكل، وتقمع الجوهر، حيث يسيطر التخلف والجهل وتتحكم في العقول فكرة البحث عن الوفر المادي والربح، وتنسي الأصالة والقيم العربية الأصلية، فالأخ يقتل أخاه طمعاً بالكسب، والمدنية الجديدة تخلت عن حضارة الفكر والنضال والوحدة وصار الدين فيها طقساً شكلياً بعيداً عن المنبع .

هذا الحزن النفسي والانهزام القومي يهدد المبدعين بالهروب من الواقع المشحون قهراً إلى فضاء من الحرية .

في واقع أنكر ذاته كانت بيروت بالنسبة إلى سعاد الصباح المتنفس القومي والفضاء الفكري الواسع الذى يمنحها حرية التعبير وتفريغ القلق .

١ ديوان في البدء كانت الأنثى صـ٤٢

٢ مها خيربك – مروة اسماعيل، صورة الواقع العربى في شعر سعاد الصباح – دار الكتاب العربي – بيروت - ٢٠٠٤ م

آتي إليك، يا بيروت [1]
هاربة من قلقي النفسي ...
آتي من التخلف الكبير ...
آتي إليك من ثقافة الشراء ... والبيع
هاربة من مدن قد أحرقت تاريخها
وطلقت مبادئ العروبة

إنه واقع عربي تراكمي بدأ بعد وفاة رسول الله، وهو يزداد مع الأيام سوئاً، وصار الأخ يقتل أخاه، والمسلم يحلل سفك دم أخيه المسلم، والمخيف في هذا الواقع شحن روح البغضاء والتنافر في نفوس الأجيال المتعاقبة وتشتت النفوس، وتحكم القمع والإرهاب، واقع بدأ لحفظ كرسي وانتهى بتخريب الإنسان .

إنني بنت الكويت [2]
كلما مر ببالي، عرب اليوم، بكيت
كلما فكرت في حال قريش
بعد أن مات رسول الله
خانتني دموعي، فكيت
كلما أبصرت طفلا عربياً
يشرب البغضاء من ثدى الإذاعات بكيت
كلما شاهدت جيشاً عربياً
يطلق النار على الشعب ... بكيت

١ ديوان برقيات عاملة الى وطني صـ ٢٥
٢ ديوان والورود نعرف الغضب صـ٢١

وتقدم الشاعرة نفسها كنموذج للذات العربية المتعالية على واقعها الانقسامي والداعية إلى التخلص من يأسها، والتمسك بالأمل والعمل على تحقيق مستقبل ينهض بالأمة العربية من تحت الخراب، وتلغي الرؤيا السرابية :

سوف أبقى دائماً [1]

أنتظر المهدي يأتينا

وفى عينيه عصفور يغني

وقمر ... وتباشير مطر

سوف أبقى دائماً

أبحث عن صفصافة .. عن نجمة ..

عم جنة خلف السراب ..

سوف أبقى دائماً

أنتظر الورد الذى

يطلع من تحت الخراب ...

هذه نماذج "قيض من فيض" والتي تصور وتعبر بوضوح عن الشاعرة سعاد الصباح هذا الصوت الخليجي الذي شكل ظاهرة شعرية غنية بالمضامين والدلالات في قضايا الانتماء، والحب، والحرية، و الحزن، و المعانات التي لا يتسع المقام لحصرها.

---

١ السابق صـ٣٠

الخاتمة

سعاد الصباح ظاهرة شعرية معاصرة لا يمكن تأطيرها بأنها فعالية نسائية أو كويتية أو خليجية بقدر ما يمكن القول أنها ظاهرة فكرية لمعت ككوكب في ليلة غير حمراء

جاء هذا البحث مستنبطاً من قراءة مستفيضة لدواوين الشاعرة وحالة النص وقد خرج البحث بالنتائج التالية :ز

١- رصد رؤية الشاعرة وموقعها من الحب والحياة .

٢- جرأتها الكثيفة وتنقلها خارج حدود المكان، الوطن إلى فضاءات أشمل .

٣- عمق الانتماء للأرض والوطن والعصر والذى شكل الجزء الأكبر من فطرتها وذاتها.

٤- لم تقف عن شعرها الفردي بل تجاوزته إلى الهم الإنساني والقومي .

٥- خرجت من الحزن الخاص إلى الحزن العام والذى شكل أبعاداً حسية وفنية وجمالية .

??خر ?عو?نا? ??لحمد لله ? ??لعالمين

قائمة المصادر والمراجع

١-ديوان آخر السيوف – دار سعاد الصباح للنشر – الكويت – ٢٠٠٥ م
٢-ديوان إليك يا ولدي – دار سعاد الصباح للنشر – الكويت – ٢٠٠٦ م
٣-ديوان أمنية – دار سعاد الصباح للنشر – الكويت – ٢٠٠٦ م
٤-ديوان امرأة بلا سواحل – دار سعاد الصباح للنشر – الكويت – ٢٠٠٥ م
٥-ديوان برقيات عاجلة الى وطني – دار سعاد الصباح للنشر – الكويت – ٠٠٣ م
٦-ديوان خذني إلى حدود الشمس – دار سعاد الصباح للنشر – الكويت – ٢٠٠٥م
٧-ديوان فتافيت امرأة – دار سعاد الصباح للنشر – الكويت – ٢٠٠٥م
٨-ديوان في البدء كانت الأنثى – دار سعاد الصباح للنشر – الكويت – ٢٠٠٥ م
٩-ديوان قصائد حب – دار سعاد الصباح للنشر – الكويت – ٢٠٠٥م
١٠-فضل الأميه – سعاد الصباح شاعرة الانتماء الحميم مطابع دار صادر – بيروت – ١٩٩٤ م
١١-السيرة الذاتية – الدكتورة سعاد الصباح – دار سعاد الصباح للنشر – الكويت – ٢٠٠٠ م

١٢-عبد اللطيف الأرناؤوط – سعاد الصباح رحلة في أعمالها غير الكاملة – بيروت – ١٩٩٥ م
١٣-على المسعودي – أسئلة الشمس – دار سعاد الصباح للنشر، الكويت ٢٠١٤
١٤-جبرا إبراهيم جبرا – الحرية والطوفان – المؤسسة العربية للدراسات والنشر – بيروت لبنان – ١٩٨٢م
١٥-جريدة الرأي الثقافية – زاوية "ضوء" العدد ١٠٦٩٦ – ٢٠٠٨م
١٦-د. مختار أبو غالي – قضايا وأدوات في شعر سعاد الصباح – القاهرة – ٢٠٠٣م
١٧-د. عزة ملك – سعاد الصباح شاعرة الألم – باريس – ١٩٩٣م
١٨-د . محمد التونجي – قراءة مسافر في شعر سعاد الصباح – الكويت – ١٩٩٣م